قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

س: ما هو توحيد الأسماء والصِّفات؟

ج: هو الإيمان بما وصف الله تَعَالَىٰ به نفسَه في كتابه، ووصفه به رسولُه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء الحسنى والصِّفات العُلى، وإمرارُها كما جاءت بلا كيفٍ؛ كما جمع الله تَعَالَىٰ بين إثباتِها ونفي التَّكييف عنها في كتابه في غير موضعٍ:

كقوله تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾[طه].

وقوله تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشُّورى:١١].

وقوله تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام].

وغيرِ ذلك.

وفي التِّرمذيِّ عن أُبيِّ بن كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أنَّ المشركين قالوا لرسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يعني لمَّا ذكر آلهتَهم -: انْسُبْ لنا ربَّك؛ فأنزل الله تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾[الإخلاص]، و(الصَّمد) الَّذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾؛ لأنَّه ليس شيءٌ يُولَد إلَّا سيموت، وليس شيءٌ يموت إلَّا سيُورَث، وإنَّ الله تَعَالَىٰ لا يموت ولا يُورَث، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾، قال: لم يكن له شبيهٌ ولا عَدِيلٌ، وليس كمثله شيءٌ.

قَالَ الشَّارِحُ وفَّقَهُ اللهُ:

لمَّا فرغ المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ مِن بيان توحيد الإلهيَّة والرُّبوبيَّة، لم يبقَ معه مِن أنواع التَّوحيد الَّتي سبق ذِكرُها محتاجًا إلى بيانٍ سِوى توحيد الأسماء والصِّفات؛ فأَتبع ما سبق بسؤالٍ يتعلَّق به؛ فقال: (ما هو توحيد الأسماء والصِّفات؟).

ثمَّ أجاب عنه بقوله: (هو الإيمان بما وصف الله تَعَالَىٰ به نفسَه في كتابه، ووصفه به رسولُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأسماء الحسنى والصِّفات العُلى، وإمرارُها كما جاءت بلا كيفٍ).

وهذا الَّذي ذكره يُبيِّن أنَّ هذا النَّوع مَداره على ثلاثة أصولٍ:

- ✓ **أحدها**: إثبات الأسماء الإلهيَّة الحسنى، والصِّفات الإلهيَّة العُلى.
- ✓ **والثَّاني**: أنَّ طريق إثباتِها هو ما جاء في كتاب الله وسنَّة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- ✓ **والثَّالث**: أنَّ الواجب فيها هو إمرارها كما جاءت بلا كَيْفٍ.

وأشار المصنِّف إلى هذا المعنى في «سلَّم الوصول»؛ فقال:

وَكُلُّ مَا لَهُ مِن الصِّفَاتِ ... أَثْبَتَهَا فِي مُحْكَمِ الْآيَاتِ
أَوْ صَحَّ فِيما قَالَهُ الرَّسُولُ ... فَحَقُّهُ التَّسْلِيمُ وَالْقَبُولُ
نُمِرُّهَا صَحِيحَةً كَمَا أَتَتْ ... مَع اعْتِقَادِنَا لِمَا لَهُ قَدِ اقْتَضَتْ
مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلِ ... وَغَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلِ

وأخصَرُ مِن هذه العبارة الَّتي ذكرها في بيان حقيقة (توحيد الأسماء والصِّفات): أن يُقال: هو إفراد الله بأسمائه الحُسنى وصفاته العُلى.

وطريق هذا الإفراد: ما جاء في القرآن والسُّـنَّة النَّبويَّة؛ كما قال المصـنِّف، ويأتي بيانُه أيضًا.

ولا يتمُّ هذا الإفراد إلَّا بالسَّـلامة من الغوائل المفسِـدة له، وأكثرُها: التَّحريف والتَّعطيل، والتَّكييف والتَّمثيل.

وأشرتُ إلى هذا المعنى قريبًا ممَّا ذكره بأخصرَ منه؛ فقلتُ:

تَـوْحِـيـدُنَـا للهِ فِـي الْأَسْـمَـاءِ ... مَع الصِّـفَـاتِ خُذْهُ فِي صَـفَـاءِ

إِيـمَـانُـنَـا بِـكُـلِّ مَـا فِـيـهَـا أَتَـى ... فِـي آيَـةٍ أَوْ فِـي حَـدِيـثٍ ثَـبَـتَـا

مَـع السَّـلَامَـةِ مِـنَ التَّـحْـرِيـفِ ... تَعْطِيلِ تَمْثِيلٍ مَعَ التَّكْيِيفِ

والمَشْرع الرَّويُّ المُوقِف على ما لله من الأسماء والصِّفات هو خبر الله وخبر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال المصـنِّف: (هو الإيمان بما وصـف الله تَعَالَىٰ به نفسَـه في كتابه، ووصـفه به رسـولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)؛ لأنَّ العقول لا تسـتقِلُّ بمعرفة ما لله عَزَّوَجَلَّ من الأسـماء والصِّـفات؛ فهي مفتقِرةٌ إلى خبَرٍ صـادقٍ من الوحي يُبيِّن ما لله من الأسـماء الحُسنى والصِّفات العُلى.

فإثبات شيءٍ منها أو نفيُه: متوقِّفٌ على ورود الدَّليل.

وهذا معنى قول أهل العِلم في هذا الموضـع: إنَّه موقوفٌ على ورود الدَّليل؛ فهو توقيفيٌّ؛ فيقولون: (أسماء الله وصفاته توقيفيَّةٌ) أي موقوفةٌ على وُرود الدَّليل بها.

وإلى هذا أشار السَّفَّارينِيُّ في «منظومته»؛ فقال:

لَـكِـنَّـهَـا فِـي الـحَـقِّ تَـوْقِـيـفِـيَّـةْ ... لَـنَـا بِـذَا أَدِلَّـةٌ وَفِـيَّـةْ

ويُلحَق بالكتاب والسُّنَّة: ما جاء عن أصحاب النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّ ما يَرِد عنهم في هذا الباب مِن الخبر عن الله عَزَّوَجَلَّ في أسمائه أو صفاته لا يُقال مِن قِبَل الرَّأي؛ فهو ممَّا تلقَّوه عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن لم يُصرِّحوا به؛ لأنَّ معرفة شيءٍ منها متعذِّرةٌ؛ فهي غيبٌ مستورٌ عنَّا، لا يُطَّلع عليها إلَّا بخبر الوحي الصَّادق [١].

وإلى هذا أشرتُ بقولي:

أَسْمَاءُ رَبِّنَا وَذِي [٢] الصِّفَاتِ ... تَثْبُتُ بِالْحَدِيثِ وَالْآيَاتِ

وَمَا أَتَى عَنْ صَاحِبٍ بِحَيْثُ لَا ... يَقُولُهُ عَن رَأْيِهِ الرَّفْعُ جَلَا

فَالْبَابُ غَيْبٌ، والصِّحَابُ أَعْظُمُ ... مِنْ قَوْلَةٍ عَلى الْعَظِيمِ تَعْظُمُ [٣]

ثمَّ ذكر المصنِّف فيما ذكر كيفيَّة الإيمان بِها؛ فقال: (إمرارُها كما جاءت بلا كيفٍ)؛

---

(١) فالآثار المرويَّة المتضمِّنة لشيءٍ من أسماء الله وصفاته عن الصَّحابة هي مرفوعةٌ حُكمًا، وإن كانت موقوفةً لفظًا؛ لأنَّ هذا لا يُقال من قِبَل الرَّأي، بل لا بدَّ أن يكون مأثورًا عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن خَفي علينا خبره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المباشر عن ذلك الاسم أو الصِّفة.

كما روى ابن أبي شيبةَ بسندٍ صحيحٍ عن ابن مسعودٍ أنَّه كان يقول في سعيه: «ربِّ اغفِر وارحم وأنت الأعَزُّ الأكرم»؛ وصحَّ هذا أيضًا عن عبد الله بن الزُّبير.

واسم (الأعَزِّ) إنَّما يُحفَظ في هذين الأثرين، ومثل هذا ممَّا يكون له حُكم الرَّفع في عدِّه من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. [شرح برنامج التَّعليم المستمر].

(٢) يعني: وهذه.

(٣) أي أنَّهم يُنزَّهون عن أن يقولوا قولًا عظيمًا في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بلا علمٍ؛ فما أتى عنهم في هذا الباب فهو ممَّا أخذوه عن النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فيجب على العبد أن يؤمن بأسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته كما جاءت في الأدلَّة من القرآن والسُّنَّة بلا كيفٍ.

وإلى هذا أشار أبو عمرَ المَقدسيُّ - من أئمَّة الحنابلة -؛ فقال:

وَالْقَوْلُ فِي الصِّفَاتِ يَا إِخْوَانِي ... كَالذَّاتِ وَالْعِلْمُ مَعَ الْبَيَانِ

إِمْرَارُهَا مِنْ غَيْرِ مَا كُفْرَانِ ... مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَلَا عُطْلَانِ

نقلهما ابن كثيرٍ عنه في «البداية والنِّهاية».

و(الإمرار) مشهورٌ في كلام السَّلف، **ويشمل أمرين:**

✓ **أحدهما**: إثبات أسماء الله وصفاته.

✓ **والآخر**: إجراؤها - يعني إبقاؤها - على معانيها الَّتي تعرفها العرب في كلامها.

ومعنى قول المصنِّف - وغيره -: (بلا كيفٍ): أي بلا كيفٍ نعلمُه؛ فإنَّ صفات الذَّوات لا تنفكُّ عن كيفيَّةٍ، وهي بالنِّسبة لله عَزَّوَجَلَّ مجهولةٌ لنا؛ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ حَجَب عنَّا كيفيَّات صفاته.

فعَلِمنا فيما عَلِمنا ما لله عَزَّوَجَلَّ من أسماءٍ وصفاتٍ، وعَلِمنا معانيها بما تتكلَّم به العرب في لسانِها، أمَّا كيفِيَّة تلك الصِّفات - أي ما تكون عليه - فقد حُجِب عِلمها عنَّا؛ كما حُجِب عنَّا عِلمنا بذاته.

فكما أنَّ العِلم بالذَّات محجوبٌ عنَّا؛ فكذلك العِلم بكيفيَّات الصِّفات محجوبٌ عنَّا.

وهذا معنى قولهم: (القول في الصِّفات كالقول في الذَّات)؛ أي كما نؤمن بأنَّ لله ذاتًا حُجِبت عنَّا؛ فكذلك نؤمن بأنَّ لله صفاتٍ حُجِبت كيفِيَّاتُها عنَّا؛ فنعلم الصِّفةَ ومعناها،

لكنَّنا لا نعلم كيفيَّة الصِّفة الَّتي تكون عليها.

وهذه القاعدة - القول في الصِّفات كالقول في الذَّات - معناها: أنَّنا نؤمن بالصِّفات إيمانَ وجودٍ، دون معرفة كيفٍ، وإيماننا بوجودها لمجيئها في خبر الوحي بالمعنى الَّذي نعرفه، وأمَّا كيفيَّاتُها فإنَّنا لا نعلمها؛ فكما نُثبِت وجود الذَّات نُثبِت وجود الصِّفات، ونُثبِت معانيها الَّتي تعرفها العرب في لسانِها.

وهي قاعدةٌ عتيقةٌ؛ جاءت في كلام جماعةٍ مِن السَّلف الأوائل من أئمَّة أهل العلم؛ كحَمْدٍ الخَطَّابيِّ - صاحب «أعلام السُّنن» و«معالم السُّنن» -، وكأبي بكرٍ الخطيب - صاحب «تاريخ بغداد» -؛ فله جوابٌ ذكر فيه هذه القاعدة: (القول في الصِّفات فرعٌ عن القول في الذَّات)، أو يقولون: (كالقول في الذَّات).

ثمَّ شَهَرها ونَشرها إيضاحًا وبيانًا: ابن تيميَّةَ الحفيدُ وأصحابُه في كتبٍ متفرِّقةٍ لهم، وتقدَّم ذِكرُها في بيتي أبي عمرَ المقدسيِّ الحنبليِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وإلى هذا أشرتُ بقولي:

عَقِيدَةُ السُّنِّيِّ فِي الصِّفَاتِ ... فَرْعُ الَّذِي يَقُولُهُ فِي الذَّاتِ

فَنُثْبِتُ الْوُجُودَ دُونَ عِلْمِ ... بِكَيْفِهَا؛ فَذَاكَ سِرٌّ عُمِّي

ومَنْ يَقُل مُعانِدًا: كَيْفَ اسْتَوَى ... إِلَهُنَا؟ فَقُلْ لَهُ: كَيْفَ هُوَ؟!

أي مَن يسأل عن شيءٍ مِن كيفيَّات الصِّفات - وأشهرُها: اعتراضهم على الاستواء - فقُل له: كيف ذات رَبِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ فإن امتنع مِن ذِكر كيفيَّة الذَّات؛ فكذلك يُمتنَع عن ذِكر كيفيَّة الصِّفات.

وأورد المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ آيًا تصدِّق هذا المعنى الَّذي ذكره مِن كون توحيد

الأسماء والصِّفات إيمانًا بِها مع إمرارها كما جاءت، وأنَّ الله جَمع في كلامه بين إثبات الصِّفات ونفي التَّكييف عنها في مواضعَ مِن القرآن؛ كقوله تَعَالَىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه]؛ أي يكون لهم علمٌ به كما علَّمهم، لكن لا يبلغ عِلمهم به أن يحيطوا به علمًا، ومِن ذلك: أنَّهم عَلِموا ما أخبر به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أسمائه وصفاته، وعَلموا معانيها، أمَّا كيفيَّات صفاته فانقطع علم البشر دونَها؛ فهم لا يعلمونَها.

ثمَّ ذكر قوله تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى:١١]؛ وهذه الآية أصلٌ في باب الأسماء والصِّفات؛ **فإنَّ الله جَمَع فيها بين النَّفي والإثبات:**

○ فالنَّفي في قوله تَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ﴾، ويندرج في هذا النَّفي: نفي كلِّ ما لا يليق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

○ وأمَّا الإثبات: ففي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

ثمَّ ذكر قوله تَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ﴾ [الأنعام: ١٠٣] أي لا تُحيط به؛ فإنَّ النَّاس وإن رأوا الله عِيانًا بأبصارهم في الآخرة، فإنَّهم لا يحيطون بالله عَزَّوَجَلَّ؛ فتَقْصُر علومهم ومداركهم عن الإحاطة بربِّهم عَزَّوَجَلَّ.

ثمَّ ختم بحديثٍ رواه التِّرمذيُّ عن أُبيِّ بن كعبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ تضمَّن بعضًا مِن المعنى المتقدِّم، وفي إسناده ضعفٌ.

ورُوِي مِن وجوهٍ موصولةٍ ومرسلَةٍ؛ يدلُّ مجموعها على ثبوت أصله؛ فأصل الحديث يندرج في الأحاديث الحسان.

والسُّورة المذكورة - وهي سورة الإخلاص - هي نسبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في القرآن؛

فإنَّ الله ذكر فيها أَحديَّته، وصَمديَّته، وفسَّر ذلك بأنَّه (﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾[الإخلاص]) أي لم يكن له مماثِلٌ ونظيرٌ [1].

(١) ولأبي العبَّاس ابن تيميَّةَ رسالةٌ مفرَدةٌ في بيان معاني سورة الإخلاص، كما أنَّ لحفيده بالتَّلمذة أبي الفَرَج ابن رجبٍ كتابٌ في تفسير سورة الإخلاص، وقد تقدَّم إقراؤُه في برنامج (الدَّرس الواحد) في إحدى سنواته. [شرح برنامج التَّعليم المستمر].